



في رحاب التوراة

دراسات وجوارات روحانية مُعمّقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University



The Original text in English and translations to other languages can be found here:
[Covenant & Conversation](#) | [Nitzavim](#) | [Not In Heaven](#) | [The Rabbi Sacks Legacy](#)

"نتسافيم" هو النصّ الأسبوعي الثامن من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية التاسعة من المقطع التاسع والعشرين وينتهي بالآية العشرين من المقطع الثلاثين.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

ليست في السّموات

هنالك قصة كانت رائجة جداً عندما كنتُ طالباً في الجامعة في فترة الستينيات من القرن الماضي وتحدّثت عن امرأة يهودية أمريكية سينيّة سافرت إلى شمال الهند لتقابل أحد الجورو المشهورين (بمعنى المُعلم أو المرشد الروحي). فكانت حشودٌ غفيرة تتجمهر أمام المكان الذي يتواجد به من أجل رؤيته، لكن المرأة شقت طريقها من بين الحشود بحجة أنها تريد رؤيته بخصوص أمر في غاية الضرورة. وبنهاية المطاف دخلت إلى خيمته ووقفت في حضرته شخصياً، ثم قالت له هذه العبارة التي دخلت عالم الأساطير من أوسع أبوابه: "يا مارفن! اسمع كلام والدتك وتوقف عما تقوم به! عليك أن تعود إلى البيت حالاً!".

لقد بدأ اليهود مطلع ستينيات القرن الماضي بتبني العديد من المعتقدات والثقافات الأخرى كمصادر للإلهام الروحي، لكنهم استنوا عقيدتهم وثقافتهم اليهودية من هذا الإلهام، على الرغم من أن اليهودية تاريخياً امتلكت وأنجبت متصوّفين ومُتأملين وشعراء وفلاسفة وشخصيات دينية وأنبياء والكثير من أصحاب الرؤية المُستقبلية. ولطالما كانت تبدو الأمور وكأنها تتسم بهذه العلاقة الطردية: كلما ازدادت المسافة التي فصلنا عن الدين اليهودي وازداد بُعدنا عنه، كلما ازداد الشوق والحنين إلى التّنويع الروحاني، لكننا مع الأسف الشديد نُفضّل روحانية الغريب على القريب.

ولطالما كنتُ أعتقد بأن هذه الحالة تقتصر على زمننا نحن فقط، لكن نبيّ الله ورسوله موشيه/موسى توقع احتمالية أن تسود حالة كهذه* مُستقبلاً، مُلمّحاً بأن اليهود في المستقبل سيقولون بأنهم بحاجة للصعود إلى السماء أو لعبور البحر من أجل إيجاد الروحانية، وبأنها موجودة في كل مكانٍ آخر سوى هذه البقعة من الأرض.

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: تبعاً لما تضمنته الآيات 11-14 من المقطع الثلاثين من سفر التثنية: "واعلم أن هذه الوصايا التي أمرتُ بها اليوم ليست بخفية عنك ولا بعيدة. ليست في السماء، فيقولون قائلًا: من ذا يصعد لنا إلى السماء ويُزّلها لنا، ويسمّعنا إياها ونعمل بها. وليست هي في جانب البحر فيأخذها لنا ويسمّعنا إياها ونعمل بها، بل الأمر قريبٌ إليك جداً، يُمكنك بفيك وبقلبك أن تعمل بها". وهذه الآيات مأخوذة من تفسير الحاخام سعاديا جاؤون للتوراة.

والحالة نفسها كانت موجودة فوق أرض إسرائيل خلال عهد الهيكل اليهودي (بيت هامقداش/بيت المقدس) الأول والثاني، ففي بداية الأمر جاءت حُقبة صار اليهود فيها في حالة انجذاب إلى آلهة الأقوام المحيطين بهم، مثل بعل إله الكنعانيين وكموش إله المُؤابيين ومردوخ وعشتار من آلهة البابليين، ولاحقاً خلال زمن الهيكل اليهودي الثاني كان اليهود مُنجذبين للهلنستية. وقد كانت هذه ظاهرة غريبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكان أفضل من عبّر عنها هو الكوميدي غروتشو ماركس حين قال: "أنا أرفض الاشتراك في نادٍ يقبل اشتراكي فيه"¹. بالتالي كان لدى اليهود نزعةً وتوجّهً للوقوع في حُبّ أناسٍ لا يُحبونهم، والمضي قدماً في أي مسارٍ روحاني آخر طالما أنه ليس مسارهم، مسار اليهودية.

وعندما يترك أصحابُ العقول العظيمة الديانة اليهودية فإن اليهودية تخسر تلك العقول، كما أن الروحانية اليهودية تُعاني عندما يذهب اليهودُ الباحثون عن الروحانية إلى أماكن أخرى، وهذا الأمر يبدو وكأنه يحدثُ بطريقة تتناقضُ تماماً مع الطريقة التي تحدّث عنها موشيه عدّة مرات في سفر التثنية: فهم يبتعدون عن الروحانية وهم أثرياء لا فقراء، وفي الأوقات التي ينعمون فيها بالحرية لا بالعبودية. بمعنى آخر: عندما نمتلك القليل فإننا لا نترددُ في شكر الله عزّ وجلّ، لكن عندما نكون غارقين في النعم التي ينبغي علينا أن نكون مُمتنين جداً لأننا نحظى بها، يبدو وكأننا ننسى الله، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت الفترات التي عبد فيها اليهودُ الأوثان أو الفترات التي اعتنقوا فيها الديانة الهلنستية هي الفترات الزمنية ذاتها التي كانوا يعيشون فيها فوق أرض إسرائيل ويحظون بكامل سيادتهم واستقلالهم، والفتره التي تخلّى فيها بعض اليهود عن اليهودية في أوروبا كانت فترة تحرّرٍ مُنحوا فيها حقوقهم المدنية لأول مرةٍ في فترة أواخر القرن الثامن عشر حتى مطلع القرن العشرين.

وفي أغلب هذه الحالات كانت الثقافات المُحيطة باليهود تُكُنّ مشاعر الكراهية والعداوة لليهودية واليهود على حد سواء، ومع ذلك كان اليهود يميلون لتبني الثقافات التي رفضتهم بدلاً من احتضان ثقافتهم الأمّ التي ورثوها أباً عن جدّ، هذه الثقافة التي منحتهم الفرصة للشعور بالطمأنينة في كنفها أكثر من أي ثقافة أخرى، الأمر الذي كان له عواقب كارثية جداً، فعبد الإله بعل لم تجعل بني إسرائيل موضع ترحيب من قبل الكنعانيين، واعتناق الديانة الهلنستية لم يجعل الإغريق ولا الرومان يُحبّون اليهود على الإطلاق، كما أن تخلّى اليهود عن اليهودية خلال القرن التاسع عشر لم يكن كفيلاً بإنهاء ظاهرة مُعاداة السامية بقدر ما أدى إلى إشعال لهيبها. ومن هذا المنطلق بإمكاننا أن نفهم القوة الكامنة في إصرار موشيه على كوننا لسنا بحاجة لتسلق الجبال أو عبور البحر حتى نجد الروحانية والحقيقة والجمال، مصداقاً لما تذكره الآية الرابعة عشرة من المقطع الثلاثين من سفر التثنية: "الأمر قريبٌ إليك جداً، يُمكنك بفيك وبقلبك أن تعمل به".

وفي نهاية المطاف كانت النتيجة أن قام اليهودُ بإثراء ثقافات غيرهم أكثر من إثرائهم لثقافتهم. فعلى سبيل المثال نجد أن جزءاً من السمفونية الثامنة للموسيقار اليهودي المعروف غوستاف ماهرل (مالر) مأخوذٌ من فُداسٍ ديني كاثوليكي. والملحن اليهودي إرفينغ برلين ابن حزانٍ يهودي (الحزان هو الشخص الذي يُرتلُ الصلوات اليهودية في المناسبات الدينية الرئيسية) كتب الأغنية الشهيرة "I'm Dreaming of a White Christmas" (أحلمُ بيوم ميلادٍ أبيض). والموسيقار اليهودي فليكس مندلسون (حفيد موشيه مندلسون الذي يُعدّ من أوائل اليهود "المُتّورين") قد ألف ترنيمة موسيقية للكنيسة وأعاد إحياء مقطوعة يوهان سبستيان باخ الموسيقية التي تحمل عنوان "St. Matthew Passion" (شعفُ القديس ماثيو) بعد أن كانت مهجورة في سراديب النسيان. والفيلسوفة سيمون فايل التي تعتبرُ واحدة من أبرز المُفكرين المسيحيين في القرن العشرين يصفها الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو بأنها "الروحُ العظيمة الوحيدة في زمننا" بالرغم من أنها ابنة لعائلة يهودية. والحال نفسه بالنسبة للفيلسوفة اليهودية إديت شتاين التي احتفت بها الكنيسة الكاثوليكية ووصفتها بالقديسة الشهيدة بالرغم من أنها كانت في عيون النازيين الذين قتلوها في معسكر أوشفيتز مُجرّد يهودية، والقائمة تطول.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان السبب وراء ذلك هو فشلُ أوروبا في قبول يهودية اليهود والديانة اليهودية؟ أم أن اليهودية هي التي فشلت في مواجهة هذا التحدي؟ في الحقيقة إن هذه الظاهرة مُعقدة جداً لدرجة أنه يصعبُ علينا تفسير الأسباب التي أدت إليها بهذه البساطة، لكن أياً كانت الأسباب فقد خسرتنا فنانيين ومفكرين وعقولاً وأرواحاً عظيمة في خضم ذلك.

وخلال مرحلة معينة تغيّرت هذه الظاهرة في إسرائيل وفي الشتات على حد سواء، فظهرت حالة من الإحياء للموسيقى اليهودية والتصوّف اليهودي، وخلالها ظهر عدد من كبار الكتاب والمُفكرين اليهود، لكننا لا زلنا في الحالة ذاتها من التقصير بحقّ الروحانية اليهودية، فأعمق جذور الروحانية تنبثق من باطن الذات: من الثقافة والتقاليد والإحساس، إنها تنبثق من بُنية وتراكيب ومُفردات اللغة الأم التي تنطق بها الروح: "الأمر قريبٌ إليك جداً، يُمكنك بفيك وبقلبك أن تعمل به".

إن جمال الروحانية اليهودية يكمن على وجه التحديد في حقيقة أن الله عزّ وجلّ - تبعاً للعقيدة اليهودية - موجودٌ بالقرب منّا، إذ لسنا بحاجة لتسلق قمم الجبال أو الدخول إلى بيت عبادة هندي (أشرم) على سبيل المثال حتى نستشعر حضور الله عزّ وجلّ، فالله حاضرٌ حول مائدة الشبات (يوم السبت اليهودي) في عشاء السبت وفي نور شموعه، وفي بساطة القداسة الموجودة في النبيذ المُبارك بالقيدوش (دعاء دخول يوم السبت)، وفي خبز الحلا المُخصص ليوم السبت اليهودي، وفي أنشودة "إِشْت حِيل" (أنشودة تُمجّد النساء وتُنشد عادة في يوم السبت اليهودي) والدعاء الذي يُبارك به أبناءنا في يوم الشبات المُبارك. إن الله حاضرٌ في الطمأنينة التي نشعر بها في يوم السبت عندما نترك العالم بأسره ليدير نفسه بنفسه طيلة يومٍ كاملٍ بينما نحنُ منعزلون عنه لنحتفي بالأشياء العظيمة التي لا تأتي من العمل بل من الاستراحة، ولا تأتي من الشراء بل من الاستمتاع بما فُمننا بشرائه، ومن الهبات والعطايا التي نحظى بها لكننا لم نمتلك الوقت لنُقدّر وجودها ونشعر بقيمتها في حياتنا كما يجب.

إن اليهودية تعتبرُ الله عزّ وجلّ قريباً جداً، فهو في أناشيد سفر المزامير، وهو يُصغي لنا خلال نقاشاتنا أثناء دراسة صفحةٍ من صفحات التلمود* أو عندما نُقدّم تفاسيرٍ جديدةٍ لنصوص دينية قديمة. إنه موجودٌ في بهجة الاحتفاء بالمناسبات والأعياد الدينية، وفي الدموع التي نذرفها حُزناً في ذكرى "تَيْشَع بَاف" (أي ذكرى التاسع من شهر آف تبعاً للتقويم العبري وهو ذكرى خراب الهيكلين الأول والثاني) إنه موجودٌ في صدى صوت النفخ بالشوفار (البوق المأخوذ من قرن الأيل أو الكبش) في مناسبة رأس السنة اليهودية "روش هَشناه" ومشاعر التوبة في يوم كيپور (عيد الغُفران). إنه موجودٌ في نسيمات الهواء العليل في أرض إسرائيل وفي حجارة مدينة أورشليم القدس، هذه البُقعة التي تلتقي فيها العراقة بالحدّثة وكأنهما صديقان حميمان يسيران جنباً إلى جنب في المكان ذاته.

إن الله عزّ وجلّ قريبٌ جداً، واليهودية ليست بحاجة إلى كاتدرائيات أو أديرةٍ أو رجال دينٍ ولاهوتٍ أو فلاسفةٍ ميتافيزيقيين ممن يُعقدون أبسط الأمور. إنها ليست بحاجة هذه الأمور جميعها بالرغم من عمق جمالها وروعيتها. وبالنسبة لنا فإن الله عزّ وجلّ هو إله الجميع وإله كل زمانٍ ومكان، واللهُ يمتلك الوقت لكل فردٍ منا ويلتقي بنا أينما نكون إذا كنا نمتلك النية الصادقة فعلاً لكي نفتح أبواب أرواحنا له.

إنني حاخامٌ أمضى اثنين وعشرين عاماً من حياته ككبير للحاخامات، لكنني في نهاية المطاف توصلتُ إلى فناعةٍ مفادها بأننا كحاخاماتٍ لم نُفهم بدورنا المُناط بنا لنساعد الناس على أن يفتحوا الأبواب والعقول والمشاعر أمام الحضور الإلهي لله خالقنا بكلّ محبة والذي يمتد حضوره إلى ما هو أبعد من هذا الكون، الله الذي عرفه أسلافنا جيّداً وأحبه جداً من أعماق قلوبهم. فقد كنا خائفين من التحديات الفكرية للعالم الذي تتصاعد فيه وتيرة العلمانية، ومن التحديات الاجتماعية التي تواجهنا في هذا العالم الذي ينبغي علينا أن نعيش فيه مُحْتَفِظِينَ بخصوصيتنا الدينية والثقافية كيهود. لقد كنا خائفين من التحديات العاطفية التي تواجهنا حين يكون اليهود واليهودية ودولة إسرائيل موضع انتقاد وشجبٍ واستنكار، بالتالي اختبأنا خلف حاجزٍ مُرتفع ظنّاً منا أننا في أمانٍ، لكن الحواجز والسواتر مهما بلغ ارتفاعها لن تجعلك تشعر بالأمان، بل هي التي تجعلك تشعرُ بالنقيض من ذلك: فكلمًا اختبأت خلفها كلما صرت خائفاً أكثر وأكثر². وما يجعلك تشعرُ بالأمان حقاً هو مواجهة التحديات دون خوفٍ أو وجلّ، وأن تكون مصدر إلهامٍ للآخرين حتى يقوموا بالأمر نفسه.

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: التلمودُ (بالعبرية: תלמוד) هو النص المركزي لليهودية الحاخامية والمصدر الأول للشرعية الدينية اليهودية (الهالاخاه) واللاهوت اليهودي. يعود أصل كلمة تلمود إلى الجذر العبري (ל-מ-ד)، بمعنى تعلم ودرّس. يحتوي التلمود على التشريعات والروايات والحكايات الرمزية والأمثال والصلوات والقواعد الأخلاقية، إضافة إلى نقاشات فلسفية ودينية حول الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم كلا من النص المكتوب وهو التناخ، والروايات الشفهية الموجودة في المشناه والجَمَاره (الجَمَاره تضم النقاشات الحاخامية حول المشناه). يتكون التلمود من سبعة وثلاثين كتاباً. وتتكوّن المشناه من ثلاثة وستين كتاباً تنقسم بدورها إلى ستة أجزاء تسمى "سُدّاريم" باللغة العبرية. هناك نُسختان من التلمود: البابلي واليروشلمي (أي تلمود أرض إسرائيل)، حيث يوثق التلمود البابلي نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض بابل، واليروشلمي يوثق نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض إسرائيل، إلا أن التلمود البابلي هو الأكثر شيوعاً واستخداماً.

وما قصده موشيه عبر كلامه الاستثنائي المذكور في الآيات 12-13 من المقطع الثلاثين من سفر التثنية "ليست في السماء... وليست في جانب البحر" هو الآتي: "كِنْدِرْلَخ (كلمة يديشية تعني يا أولاد)، لقد كان آباؤكم وأجدادكم يرتجفون خوفاً عندما سمعوا صوت الله عزّ وجلّ في سينا، فكان الصوت طاغياً على أسماعهم لدرجة انهم قالوا: سنموت إذا واصلنا سماع هذا الصوت. بالتالي فإن الله عزّ وجلّ وجدّ طرُقاً ليكونَ حاضرًا بينكم ويلتقي بكم دون أن يكونَ حضوره طاغياً بشكل يفوق قدرتكم على التحمل، فهو الخالقُ والحاكمُ وصاحبُ السلطة المطلقة ومُسَبِّبُ الأسبابِ ومُحَرِّكُ النجوم والكواكب. لكنه في الوقت نفسه الأبُ والشريكُ والمُحِبُّ والصدِيقُ، وحضوره وسكينته "شخيناها" جاءت من كلمة "شخِن" التي تعني جارك الساكنَ بِقُرْبِكَ.

لهذا يجبُ عليكم أن تحمّده كل صباح على نعمة وهدية الحياة التي منحكم إياها، وأن تردّدوا دُعاء "شَمَع" مرتين كل يوم على هدية المحبة التي تغمر قلوبنا، وأن تضمّوا صوتكم لأصوات الآخرين في الصلوات والأدعية حتى تعبّر روحه من خلالكم مانحةً إياكم القوّة والجُرأة على تغيير العالم. وعندما لا يكونُ بمقدورك رؤية الله عزّ وجلّ فهذا ببساطة لأنك تنظرُ في الاتجاه الخاطي، وعندما يبدو لك الله غير حاضرٍ فهذا لأنك تقفُ خلف الباب، والله موجودٌ خلفه لكنك لا تريد أن تفتحه.

"لهذا لا تُعامل الله عز وجل على أنه غريب، فهو يُحِبُّك ويؤمنُ بك ويريدُ لك النجاح والتوفيق. وحتى تجده فإنه ليس مطلوباً منك أن تصعدَ إلى السماء ولا أن تشقّ البحر، لأنه حاضرٌ في الصوت الذي بإمكانك سماعه والإصغاء إليه في سكينته وروحك وهدوئها. إنه موجودٌ في النور الذي تراه في كل مرّة تنظر فيها نظرة ذهول، وفي اليد التي تربتُ على كتفك وتمدّ لك العون وأنت في قمة يأسك وإحباطك. إن الله عزّ وجلّ حاضرٌ في كل نفسٍ تتنفسُهُ مانحاً إياك الحياة".

1. Telegram to the Friars ' Club of Beverly Hills to which he belonged, as recounted in *Groucho and Me* Chicago: (Bernard Geis Associates, 1959), 321

2. Rashi on Numbers 13:18

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

